

عبد القادر مولاي

قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجزائر

دور العلامة والمصلح الفضيل الورتيلاني

في الإصلاح والتربية والثورة التحريرية الجزائرية الكبرى

الملخص:

يتناول موضوع هذا المقال نشأة وعمل الشيخ الفضيل الورتيلاني بالجزائر في إطار الحركة الإصلاحية، بعرض الدور التربوي والإصلاحي والسياسي الذي قام به في فترتي الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي.

Resumé

Le résumé que nous exposand dans notre article et sur les travaux de recherches de Cheikh el foudile Ourtilani dans des domaines sociale et politique en Algérie pendant les années 1940 et 1950 du 20 siecle.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

إن الحركة الإصلاحية التي شهدتها المجتمع الجزائري تجسدت بفضل روادها الأوائل أمثال الشيخ عبد القادر المجاوي "1848م-1914م" والشيخ الصالح بن مهنا "1854م-1910م" والشيخ محمد مصطفى بن الخوجة "1865م-1917م" والشيخ عبد الحليم بن سماية "1886م-1933م" والشيخ المولود بن الموهوب "1866م-1930م" والشيخ محمد بن شنب "1869م-1929م"، الذين وضعوا لبناتها الأولى، لتظهر إلى حيز الوجود كنهضة علمية وإصلاحية، أكد الكثير من المؤرخين الذين عاصروها بأنها نهضة علمية وفكرية تعود جذورها إلى حركة النهضة الإسلامية الحديثة التي شهدتها المشرق العربي على يد روادها أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، والشيخ طاهر الجزائري صاحب حلقة دمشق ورائد من رواد القومية العربية الإسلامية.

ورواد الفكر الغربي ومدارسه يشيرون في العديد من كتاباتهم إلى كون أن رواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس هم إصلاحيون ومدارسهم هي إمتداد للمدرسة الإصلاحية في المشرق العربي والإسلامي.

إن مصلحي الجزائر ومن بينهم الشيخ الفضيل الورتيلاني قد رعوا خصوصيات ومقومات الشعب الجزائري، فعملوا على إصلاحه دون عنف، وقد كانوا من الثائرين على العادات والتقاليد البالية التي كان منها الإسلام براء وهم من النوع الهادئ الذي يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وفي هذا الصدد سأتطرق إلى نشأة وحياة الشيخ الفضيل الورتيلاني وعوامل تكوين شخصيته، وعمله الإصلاحي بالجزائر مبرزاً مساهمته في الدفاع ونصرة الثورة التحريرية الجزائرية.

حياته.

هو الفضيل الحسين المعروف باسم الفضيل الورتيلاني ولد بقرية أنو المجاورة لبني ورتيلان يوم 06 فيفري 1900م، يعود نسبه إلى أحد أجداده الحسين الورتيلاني⁽¹⁾ المتوفي عام 1779م. حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وبعد زوال تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه انتقل إلى قسنطينة لإتمام دراسته، وبعد تخرجه أعجب به الشيخ عبد الحميد بن باديس

حيث كان يطلب مرافقته أثناء رحلاته الإصلاحية عبر مناطق الوطن، وبها تكونت شخصيته حتى أصبح ينوب عن الشيخ ابن باديس في العديد من المهام الإصلاحية والزيارات الميدانية، كإنتدابه إلى فرنسا لتوعية الجالية الجزائرية والمغربية هناك، ففتح العديد من النوادي الثقافية تدرس فيها اللغة العربية والدين الإسلامي لتفادي الذوبان والانصهار في المجتمع الغربي.

ونتيجة للدور الإيجابي والفعال الذي قام به الشيخ الفضيل الورتيلاني عبر العديد من المدن الفرنسية، كان رد فعل السلطات الفرنسية المطاردة، فهاجر إلى مصر قاصدا الجامع الأزهر الشريف الذي نال منه الشهادة العالمية. وكانت له إتصالات ومقابلات مع العديد من العلماء والمصلحين والساسة العرب بمصر وغيرها من البلدان العربية.

زار الشيخ الفضيل الورتيلاني الكثير من البلدان العربية والإسلامية من بينها اليمن التي شارك أبنائها في بعث نهضة إصلاحية ببلادهم وإخراجها من التخلف الرهيب الذي كان المجتمع اليمني يعانيه. فكان له الفضل في توحيد صفوف أبناء الشعب اليمني ودفعهم إلى الوحدة والعمل بإخلاص لتحرير اليمن وتحليصه من برائن الإستعمار والتخلف والجمود الفكري.

وبعدھا إنتقل إلى مصر أين مثل الجزائر ودافع عن قضيتها إلى جانب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، فأسس الكثير من الجمعيات والنوادي⁽²⁾ التي إجتهدت وعملت على التعريف بالقضية الجزائرية في كفاحها ضد الإستعمار الفرنسي، كما شارك في تحرير البيان الذي أصدرته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تؤيد فيه إندلاع الثورة التحريرية، هذه الثورة التي رأت في شخصية الشيخ الفضيل الورتيلاني الرجل الكفيل والمناسب لإقناع دولة تركيا في تأييدها للثورة الجزائرية، تركيا التي شاءت الأقدار أن يتوفي فيها عام 1959م ويدفن في تربتها إلى أن نقلت رفاته إلى أرض الوطن عام 1987م حيث دفن في مسقط رأسه ببني ورتيلان.

ومن خلال اتصالي ببعض من عاصروه اتضح لي أن شخصية الشيخ الفضيل الورتيلاني لم تنل حقها من الدراسة الحقيقية بالرغم ما قدمته من أعمال جليلة في سبيل الوطن الجزائري خاصة والمغرب العربي والعالم الإسلامي عامة، حيث ربط وطنه بهم.

كما أن هذه الشخصية لم تنل الإهتمام الكافي فيما يخص إنتاجها التربوي والإصلاحي والديني، ومواقفه تجاه قضايا أمته العربية والإسلامية، حيث استطاعت راب الصدع بين الإخوة والأشقاء.

إن الشيخ الفضيل الورتيلاني يعتبر من بين الشخصيات التي لعبت دورا كبيرا في ميدان الإصلاح في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهو رائد من روادها وعلم من أعلامها. وهذا ما أكدته معاصروه والذين تتلمذوا على يده، ويكفيه فخرا وإعتزازا أنه هو الذي وضع اللبنات الأولى والأسس المتينة للحركة الإصلاحية وسط الجالية الجزائرية في ديار الغربة، تلك الجالية التي كانت عرضة للتفرنس والتغريب.

صخر الشيخ الفضيل الورتيلاني حياته لخدمة قضية بلاده والدفاع عنها أينما حل وارتحل في المشرق العربي والبلدان الإسلامية ودول أوروبا إلى أن إنتقل إلى رحمة الله تعالى سنة 1959م. دون أن يشهد الانتصار العظيم الذي حققه شعبه يوم 5 جويلية 1962م. والغاية من التعرض لحياته ومسارها التاريخي هو إستخلاص أهم الإستنتاجات التاريخية التي تتعلق أساسا بتكوين شخصيته.

رحلاته الإصلاحية:

نظرا لمواهبه الفكرية وجهوده الإصلاحية في ميدان التربية والتعليم ونشاط الدعوة والإرشاد، رافق الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في رحلاته وجولاته عبر الوطن لنشر الإصلاح وتكوين الجمعيات والشعب وتأسيس المدارس والنوادي الثقافية، فتمكن الشيخ الفضيل الورتيلاني من إدراك ورؤية الوضع السياسي الاجتماعي والإقتصادي والثقافي على حقيقته في الجزائر، وسماع ما يثير الأسى من مهازل الإستعمار وفضائعه. فقام بوصف وقائع تلك الرحلات بأسلوب مؤثر وفعال.

قادته الرحلة الإصلاحية إلى كل من برج بوعريريج والتلاغمة وعين مليلة⁽³⁾ و"سطيف وبوقاعة" التي ذكرها بشكل يوحي أنه ملاحظ وصحفي متمرس، حيث وصف موقع المنطقة جغرافيا ونوعية إقتصادها وعدد سكانها وصفاتهم وطبائعهم ومهنتهم ورفضهم للإحتلال الأجنبي ومدى حبهم وإقبالهم على العلم والمعرفة، ثم يذكر إستقبالهم الطيب لوفد الرحلة.

وبعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن خطب "إبن باديس" وخطبه في ميدان الإصلاح وفي الختام يذكر مدى تأثير الرحلة على سكان المنطقة.

إجتهد الشيخ "الفضيل الورتيلاني" في القضاء على الجهل والخرافات البالية لأهمها يقفان في طريق تقدم المجتمع ورفيها، فقد اعتمد في تدريسه على إعطاء الأمثلة من الواقع المعاش، وقال أحد تلاميذه >>.. ما عرفت الإيمان ولا الإخلاص ولا تصورت مدلولاتهما

إلا بعد أن تلقيت درسين من الأستاذ "الفضيل الورتيلاني". التي كانت بمثابة معان سامية نفهمها بكل دقة وتفصيل << (4).

ومن مواقف الشيخ الفضيل الورتيلاني أثناء تقديمه الدروس فقها وحديثا أنه كان يمهّد لها بمقدمات مناسبة للمسألة العلمية التي تدرس، حيث يدخل في موضوعات شتى حتى أن بعض طلبته يحاولون إعادته إلى الموضوع وفي هذا الشأن يقول لهم الشيخ عبد الحميد بن باديس <<..دعوه يتكلم دعوه اتركوه يتكلم عن سجيته >> (5).

وكانت للشيخ "الفضيل الورتيلاني" مواقف إتجاه أصدقائه في الإصلاح وطلبته في التربية والتعليم حيث كون شبيبة جزائرية صالحة كانت بمثابة قاعدة للنهضة الثقافية في الجزائر التي تطورت واتضحت معالمها أثناء الثورة التحريرية وبعد الإستقلال، نتيجة كتاباته ومقالاته المنشورة والموجهة للقراء عبر المجلات والجرائد والصحف الوطنية (البصائر، المنتقد، الشهاب، إلخ..). وإضافة إلى الصحف والمجلات العربية والإسلامية (جريدة بيروت الدمشقية، المنار، الزهراء، الزيتونة). (6).

هذه الصحف التي ساهمت في تكوين الشباب تكوينا دينيا وثقافيا ووطنيا فتعددت مواهبه وأصبح مهياً للإصلاح قدما على نهج رائدها المصلح "عبد الحميد بن باديس" (7)، فتفانى الشيخ الفضيل الورتيلاني في خدمة أهداف ومبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وهكذا كانت رسالته الإصلاحية ضد الجهل والإعتقاد الزائف والفكر الجامد، فأصر على خدمة الإصلاح ضد هذه الجبهات مهما كلفته الظروف والعراقيل معبرا بقوله: ..تستطيع الظروف أن تكييفنا ولكنها لا تستطيع أن تلتفنا. (8)

سبق وأن ذكرنا بأن "الورتيلاني" كانت له مكانة خاصة لدى أستاذه "إبن باديس" نظرا لمواهبه الخطابية ونشاطه الدءوب واستعداده الدائم لخدمة ونجاح الدعوة و الإرشاد إذ أوكله تمثيل مجلة "الشهاب" مهمة تلاءمت مع طبيعته في حب الاتصال بالناس وانسجمت مع ميوله نحو نشر الدعوة الإسلامية والتبليغ للمبادئ التي يؤمن بها.

كما شرفه بالتدريس بمدرسة التربية والتعليم فأصبح مساعدا له وبدأ يصطحبه خلال رحلاته التربوية والإرشادية إلى مختلف جهات القطر. (9) كما أسلفنا فتكون تكويننا هاما في ميدان الإصلاح.

لم يكف الشيخ الفضيل الورتيلاني بالدروس التي كان يقدمها بل كان يقوم بجولات ميدانية عبر مناطق البلاد يتعرف فيها على الناس وأحوالهم ويلقي الدروس في المساجد والزوايا، ويصرح عن نشاطه التعليمي والتربوي، وعن الدروس العلمية التي

يتلقاها الطلبة في مدينة قسنطينة حتى يبين لهم الفائدة المرجوة منها لمن يشاء الإلتحاق بها، فلقيت دعوته إقبالا فائقا، فتوافدت أفواجا من كل فج عميق.⁽¹⁰⁾

كان يطلب ويلح على شيوخ الزوايا الذين يحضرون دروسه ومحاضراته أن يشجعوا الشباب للتعلم فلقيت دعوته استجابة واسعة. وهذا الأسلوب الإعلامي تنامي عدد الطلاب بالجامع الأخضر بقسنطينة، وتزامن عمله هذا مع أهداف ومبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ نشأتها وتأسيسها عام 1931م إذ قررت أن توفد إلى أمتها رجالا يعملون بهذا الأسلوب في نشر الإصلاح والدعوة لصالح فئات الشباب الجزائري.⁽¹¹⁾

قام رجال مخلصون بنشر الهداية الصحيحة عبر مدن الوطن وتعريف الأمة الجزائرية بالجمعية والاتصال بأنصارها في الوقت الذي اشتدت فيه الحرب المذهبية بين أنصار الحركة الإصلاحية وبين أتباع الطريقة "إذ قام الشيخ "الفضيل الورتيلاني" بأدوار فعالة في ترجيح ميزان القوة والنجاح لصالح أنصار الحركة الإصلاحية على اختلاف أهدافها وتعدد مجالاتها. فهذه الأعمال تلاءمت مع طبيعته في حب الإتصال بال جماهير الشعبية، وتبليغ المبادئ التي آمن بها واقتنع بصحتها وصدقها فوجد ضالته في مهمة تمثيل مجلة الشهاب.⁽¹²⁾ التي نشر فيها العديد من المواضيع والمقالات القيمة عالج فيها قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية عاشها المجتمع الجزائري. وأثمرت رحلاته الإصلاحية عبر مدن البلاد متنقلا باسم الجمعية في تزايد أنصارها بعد أن وضع خططها وغايتها داعيا إلى الإصلاح ومحاربة الانحراف.

وبعد اختياره من طرف أستاذه "عبد الحميد بن باديس" مساعدا له في تدريس بعض المناهج المقررة، فنهض بالمهمة خير نهوض وكان من أبرز ما يميز دروسه أنه لا يكتفي بتدريس المادة المقررة بل يتناول ما شاء من التاريخ والأدب والسياسة وغيرها، يؤانسه في كل ذلك لسان فصيح وعبقرية في التفكير.⁽¹³⁾

هكذا كان شأنه في مدرسة التربية والتعليم فكان مرييا ماهرا علم الطلبة - في ندوات كان يشرف على تنظيمها- حرمة البيان العربي وكيف يقتصدون في الكلام قولا وكتابة، وكيف يرتادون طريق الكلمة قبل تسجيلها بالصوت أو المداد لأن اللسان والقلم مسؤولية لا بد من رعايتها .

وفيما يخص نصرته اللغة العربية لغة القرآن الكريم كان الشيخ الفضيل الورتيلاني يدفع طلبته على التحدث بها ويحثهم على النطق السليم بها، وفي الوقت نفسه كان يدفعهم إلى تعلم ما أمكن من اللغات الأخرى موضحا لهم أن المرء يتعدد باللغات التي

يجيدها وأفضل أن تكون لغته الوطنية (العلامة المميزة) لوجوده والمظهر الصادق لاستقلاله ووطنيته، حيث تعلم من ابن باديس التعلم والتعليم لتحرير العقول من الجهل والخرافات. وفي إطار رحلاته الإصلاحية عبر مدن الجزائر حضر افتتاح نادي الإرشاد.⁽¹⁴⁾ بمدينة سطيف مركز حركة الجمعية، وألقيت قصيدة بالمناسبة مطلعها :

على بركات الله سيروا وشمروا * فهذا تبشير الصباح فشمروا⁽¹⁵⁾

وكان الكل مسرور بما قدمه رجال الإصلاح من عمل وإصلاح فكان منارا للنادي⁽¹⁶⁾ يقتدي به، وعن هذه المرحلة يقول الشيخ "الفضيل الورتيلاني": >> كنت مع الأستاذ الإمام في رحلة مضى عليها عام إلى هذه البلدة وكتبت عنها في "الشهاب" ومما حضرني فيما قلته... بلدة طيبة ويعلم الله أي ما أردت إلا استفزازهم وتحريك همهم للحاق بمن سبقهم وما كان ينبغي أن يملكون من وسائل دونه إلى النهضة العلمية الدينية التي يراها وحدها الكافلة بتكميل شخصية الجزائري المسلم العربي وكان إقبال أهل المدينة عظيما سيما من طبقات الشباب ولقد نوهنا يومئذ في الكتابة عن شدة رغبتهم في العلم بدليل تقديرهم لأهله وقد خصصنا بالذكر السيد عباس فرحات ومصطفى وابن معيزة ومحمد بن عمار الذين علقنا عليهم الآمال واليوم وقد فتح الله هذه البلدة بفضل ما بذرتة الجمعية فيها من حبوب مثمرة فهي اليوم "بلدة طيبة ورب غفور">>.⁽¹⁷⁾

وعن رحلته إلى مدينة عنابه تجلت دعوته في تأسيس مدرسة لصالح أبناء المدينة فخطبهم بقوله: >> فإن كان فيكم اليوم من يعلم كالأخ "زهير الزاهري فإن بقاءه معكم غير مضمون لأنه قد أدى واجبه" ثم دارت بينه وبين السيد ابن أوزان النائب المالي محادثة انتهت إلى الاتفاق على وجوب تعليم شباب الجزائر لغتهم ودينهم، وأن المسؤولية محمولة على كواهل الدعاة.⁽¹⁸⁾ وبعدها رحل إلى مدينة "قالمة" حيث قصد "النادي" الذي وجد فيه جمعا غفيرا في انتظاره وبالنادي لاحظ شيئا حز في نفسه فقال: >>..لقد أحببتهم وودت لهم الخير كما وددته لنفسي على أنني كرهت شيئا من بعضهم نعم كرهته منهم ومن غيرهم لأنه الداء العضال والمرض الفتاك والقاضي على الآمال هو اليأس فدونكم السلاح أيها الشباب ولا تستسلموا له قاوموه بأنواع الأعمال والعاقبة للعاملين>>.

وألقي الشيخ "الفضيل الورتيلاني" محاضرة حضرها الكثير من الشباب موضوعها الاحترام ختمت بتأثير عميق واستحسان لائق. فأخبرهم بأن بمدنيتهم "قالمة" رجلا⁽¹⁹⁾ من عائلة الإصلاح ممن تعلق عليهم الآمال ويرجى تحقيقها على يده إن واصلت الأمة أعمالها معه>>.⁽²⁰⁾

وعن رحلته الإصلاحية إلى مدينة "عين مليلة" يؤكد الشيخ "الفضيل الورتيلاني" بأنه ألف القراء منه ما يكتب لهم في الرحلات أن يصف لهم البلدان بأسلوب جغرافي تارة وبطريقة تحليلية للبيئة تارة أخرى وذكر الأشخاص. وهكذا لبى الشيخ الدعوة من خلال وجوده بالمدينة فيقول: <>..تأسست جمعية دينية بالبلدة، تحت رئاسة الشيخ "عبد الحميد بن باديس" وأصبح لزاما عليه أن يزورها في كل شهر على الأقل مرة وفي بعض الأحيان مرة في الأسبوع لدواع ضرورية تقتضي حضوره لا محالة لأن المهمة كبيرة وهي السعي لشراء المسجد>>.(21) وقد كنا كتبنا عنه في "الشهاب" بالتفصيل، فواصلت الجمعية أعمالها حتى تم لها-بحمد الله- ما أرادت فاشترته عملا بالقانون بإسم رئيسها الأستاذ عبد الحميد بن باديس.(22)

وجمعت الأموال الكافية واستشار أهل الخبرة وأرباب الفن المعماري في أساليب التملك المستعملة في الدواوين الرسمية فكان عقد البيع حينها حث "الإمام" أعضاء إدارة الجمعية -الجمعية الدينية بالعمالة- على فتح مكتب للصبيان، وتعليمهم الدين واللغة العربية.

ثم غادر المدينة متوجها رفقة أستاذه "الإمام" وبعض رفاقه إلى مدينة "عنابة" لأداء واجب ديني وهو التعارف بالحجاج ووعظهم وإرشادهم، وتعليمهم ما ينفعهم في مناسكهم وتقريبهم إلى الله سبحانه وتعالى، بالطاعات.(23)

وفي هذا الصدد يقول الشيخ "الفضيل الورتيلاني": وجدنا عباد الله المصلحين وعلى رأسهم السيد "محمود معطي الله" ينتظرون ما نقدم لهم من حقائق الدين، فقبلت رغبتهم وأوصيتهم في الأخير أن يعملوا ويؤسسوا مدرسة علمية للترشيد وحثهم على المبادرة بإنشائها كسائر المدن التي أسست كحاضرة قسنطينة وميلة وتلمسان والجزائر.

أم رحلته إلى مدينة "التلاغمة" فقد وصفها وصفا جغرافيا ومما جاء في وصفه لها.. إنها بلدة واقعة غرب قسنطينة بنحو خمسة وأربعين ميلا سكانها العرب، أكثر أعيانها ملازمون لقسنطينة ويحضرون دروس الشيخ "ابن باديس" ولهم اتصال وصدقة ببعض طلبته.

وعن رجال الإصلاح يذكر الشيخ رغم قلة وجود دعاة الإصلاح منهم فعقيدتهم صحيحة وإيمانهم قوي، وحبهم في العلم ووثوقهم بالعلماء أمر ظاهر مع إدراكهم لأربابه ويستدل "الورتيلاني" بقوله: <>..ويكفي دليلا هذا الفضل الذي سبقوا إليه، الإجماع على هجر البدع وبادروا إلى محاربة ما هو أضر وأكثر وقوعا مع العزم القوي على الإتيان عليها>>.(24).

هكذا كان يقول ويستدل ويشرح لهم أمور الدين في شتى المسائل، حيث فسر لهم مسألة "الجنائز" تفسيراً شافياً بما فيها مخالفة للشريعة الإسلامية وما ينشأ عنها من الأضرار المادية والأدبية أقلها تلك الأموال التي تذهب ضحية البدعة وهم أحوج ما يكونون إليها. ثم ذكر لهم ما إتفق أعيانهم على تركه في الوقت إذ كانوا على علم منه وفاق منهم فأجاب الجميع بالسمع والطاعة لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصبحوا يجتمعون على العلم ويتأثرون به وينتهون عما نهى عنه.

وبعد هذه الرحلة المباركة قام "الورتيلاني" رفقة أستاذه "الإمام" برحلة إصلاحية إلى مدينة برج بوعريريج التي وصفها كعادته على الشكل التالي:

>>.. هي بلدة معروفة واقعة بين "العرب والقبائل" وسكانها الأهالي منهما معا في شأن هذا التقسيم اللقي يؤكد الشيخ "الفضيل الورتيلاني": هذا التقسيم اللقي لم يؤثر أدنى تقسيم معنوي، بل هم إخوان مسلمون، متحابون في الله يعامل بعضهم بعضاً بلا خصوصية ولا امتياز تلك سنة الله في عباده المؤمنين فهم أهل خير في أقوالهم وأفعالهم وتفكيرهم فمن جملة ما فكروا فيه تفكير خير في ما بعد "عيد الأضحى" أن يستعدوا ويتشرفوا بوفد من "جمعية العلماء

المسلمين" في مقدمتهم الشيخ "عبد الحميد بن باديس" الذي دعوه لزيارة بلدتهم. <<(25) فلبى الدعوة منتدباً الشيخ "الفضيل الورتيلاني" لمرافقته. وعند وصولهما مدينة سطيف وجدا وفداً من أعضائها في استقبالهما صحبة السيد أحمد الدراجي وعند إشرافهما على بلدة "برج بوعريريج" وجدا أعيانه وفي مقدمتهم رئيس "الشعبة" السيد: "الحاج محمد بن لطرش" وفيهم قال الشيخ الفضيل الورتيلاني:

>>.. لقد برهنوا على صدق محبتهم في العلم ومعرفتهم بأهله الذين يدعونه حقاً وصدقاً ممن يدعونه زوراً وكذباً يبتغون عرض الحياة الدنيا <<(26). وألقى الإمام "عبد الحميد بن باديس" خطبة ثم تلاه العالم الأديب السيد "الحاج محمد بن لطرش" رئيس جمعية البرج الذي قال فيه الأستاذ "الفضيل" إنه ابن حرة مشيراً إلى قول القائل:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة * يرى غمرات الموت ثم يزورها. (27)

وفي شأن خطبة "الإمام" فقد إفتحها باللغة العربية الفصحى مدعمة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المشتمة على الشناء على الله والمتضمنة لموضوع المحاضرة التي كان عنوانها: "التعليم والتعلم".

وفي إطار رحلاته الإصلاحية المستمرة توجه إلى مدينة "باتنة" التي يقول عنها: >>..مدينة كبيرة عامرة بالأهالي، واقعة جنوب قسنطينة بنحو مائة وخمسين ميلا، وكان -قبل الحركة الإصلاحية- حظها من العلم قليلا لعدم وجود من يقوم بنشره فيها فحيم على سكانها الجهل والبدع حتى جاء أمر الله وقد بعث لهذه الأمة رجلا من العلماء المخلصين الطاهر الحركاتي>>.⁽²⁸⁾ الذي كان كغيره من إخوانه المصلحين عاملا بما تمليه عليه أصول الشريعة الإسلامية جادا في إرضاء ربه، ودعا الشباب إلى الالتحاق والإنخراط في سلك التعليم>>.⁽²⁹⁾

وبخصوص الجمعية يقول الشيخ "الفضيل الورتيلاني" عنها بتلك المدينة:>>..تألف وفد الجمعية من ثلاثة عشر عضوا عينهم الرئيس، فجاء الكل ملين بنشاط زائد ورغبة صادقة>>.⁽³⁰⁾ وكان لخطاب الأستاذ "الإمام"-في نادي الإصلاح- أثر كبير في نفوس العامة. ثم تلاه السيد "بن خليل" فتكلم عن ضرورة فتح مدرسة لتعليم النشء، وحثم الشيخ الفضيل الورتيلاني قوله عن نتائج الرحلة فقال:>>..فإن يوم "باتنة" يوم مشهود...فيه الإسلام جهدا لمستطاع>>.⁽³¹⁾ وعن بلدة "بوقاعة">>.⁽³²⁾ التي رحل إليها في إطار عمله الإصلاحي يصفها بأنها بلدة قليلة السكان تشمل "سنة عشر" عرشا وكل عرش يضم عشرات من القرى فأدانها ثلاثون قرية وأعلاه فوق الخمسين، والقرية الصغيرة منها لا تقل عن عشرين دارا. وبالجملة فهي أمة تمثل جانبا عظيما من القبائل الصغرى لغتهم بربرية ورثوها عن الآباء والأجداد ويحسنون العربية الدارجة لمجاورتهم العرب ومخالطتهم لهم في الأسواق للتجارة وغيرها، وأرضهم ذات جبال شاهقة قريبة من جبال القبائل شبيهة، ومن الناحية الاقتصادية لهذه البلدة يوضح الشيخ قائلا: أما الزراعة فهي قليلة عندهم باستثناء التين والزيتون والعنب.

وفي شأن العلم يقول:>>..أنهم قاموا بنشر العلم باسم العلم لا غير فالقرآن الكريم كاد أن يكتب ويمحي يوميا لكثرة المتعلمين حيث أن كل سورة منه ممن يمحي منها شيئا قد حفظه ويكتب ما بعده للغد. وكذلك الشأن في قراءة الفنون كثرة وإجتهادا وإتضح جهدهم في العمل والإخلاص بتأسيس "جمعية التربية والتعليم الإسلامية">>.⁽³³⁾ فاستدعوا "الإمام" ليحضر إجتماعهم العام>>.⁽³⁴⁾ فلبى الدعوة مصطحبا معه الشيخ: "الفضيل الورتيلاني وعباس بن الحاج الطيب" من قسنطينة، و"عبد الرحمن بن بيبي" و"أحمد الدراجي" و"محمود أكتوف" من سطيف وكان مقر الاجتماع في الفضاء "السوق" - لكثرة العامة- إذ افتتحه "ابن باديس" بنشر الدور الذي فيما كان عليه أجداد تلك الأمة من المجد والسؤدد حيث ذكر بأنهم لم ينالوا ذلك الفضل إلا بالتربية والتعليم وتوسع في شرح معنى هذين الإسمين حتى أثبت أهمهما ضروريان للإنسان.

هذه الجهود الإصلاحية في إطارها العام وفق الكيفية التي قدمت بها في الجهة الشرقية من البلاد، وما حققته من نتائج في ميدان التربية والتعليم، والإصلاح الديني والاجتماعي وإنشاء المدارس التعليمية والنوادي الثقافية وبناء المساجد.

شد الشيخ الفضيل الورتيلاني الرحال إلى الغرب الجزائري لنفس الغرض المحقق بشرقه.

ويستعرض "الورتيلاني" المسيرة الإصلاحية قائلا:

عقدنا رحلة لخدمة الإصلاح في كل من بني وغليس، وأهل "أقبو" وأهل "دلس" الذين لخصنا لهم رحلاتنا في ميدان الإصلاح، والعلم، والتوجيه السليم، للشباب والعامّة عبر الوطن. وإتجهنا رفقة "محمد آل الصادق الجندلي" صوب مدينة "مليانة". التي عرفها لهم المفتي الشيخ "محمد لوكال".⁽³⁵⁾ وقال الورتيلاني كلمته المشهورة: فمن لا نرى له عناية بكتب السنة لا تثق بعلمه في الدين.

وعن أهل المدينة يخبرنا الشيخ: إن عامة "مليانة" قليلة الرغبة في العلم فيها فتور وخمول، قيص لهم من يوقظهم في حين "خميس مليانة" التي عرفنا بها السيد "عليش"⁽³⁶⁾ وعقد معنا مجلسا، أزال علينا ما شاهدناه من النشاط والرغبة والإقبال ما حملناه من المهم من فتور عامة مليانة وأبدى الوفد فيما كتبوه عنها لما شاهدوه من قلة إقبال عامتها على العلم... فجاء كتاب من عند الأخ الأديب السيد: "عبد القادر فكري" يقول فيه: لا خمول ولا فتور في عامة "مليانة".

وفي هذا العصر دخل أبناءهم أفواجا إلى "المدرسة الثعالبية" وإلى المدرسة الابتدائية "بيوزريعة قرب العاصمة، وقد سر وفد الجمعية أن يسمع هذا عن إخوانهم فشكروا الأخ "فكري" على عنايته وتنبهه.

ويضيف الشيخ الفضيل الورتيلاني قائلا: قصدنا مدينة "الأصنام" وفضلائها ومفتيها العالم الشيخ: "الونوغي بن بومزراق" والشيخ "طالب شعيب" القاضي بها، كما حضرنا إجتماعا بساحة الجامع بحضرة الشيخ: المفتي والعلامة "إبن عشيظ".

وختم الاجتماع الشيخ "الفضيل الورتيلاني" بقوله: إن هذه البلدة، بلدة تجارية، وفي أهلها ذكاء وفهم وقبول للتعليم. وبعدها انتقل الوفد إلى مدينة "غليزان" فاجتمعوا فيها مع الشيخ: "مولاي محمد" والسيد "النور كلال" كما وجد بها السيد: "مهدي بن الشيخ بو عبد الله آل بو عبد الله في انتظاره مع الوفد الإصلاحي المرافق فشاهدوا من أدهم وكرمهم وحسن إستقبالهم لو فد جمعية العلماء.

وعن هذه الجولة الإصلاحية قال الشيخ "الفضيل الورتيلاني" عن بلدة "غليزان":
>>..إن هذه البلدة هي مثل بلدة "الأصنام" من ناحية التجارة بل أكثر ومثل بلدة "مليانة" من ناحية المعارف<< (37).

وفي مدينة "مستغانم" التي رحل إليها الوفد من "غليزان" يقول عنها "الورتيلاني":
..إنتقلنا إلى مسجد الأخ الشيخ "بالقاسم بن حلوش" الذي أنزلنا على الرحب والسعة بينما أهلها هم أهل ذكاء وحسن نية، وإقبال على العلم حيث وجدنا بلقاسم بن حلوش (38) قائما في مسجده بالتعليم والإرشاد للعامة بدروس ليلية وكذا الشيخ "ابن الأعرج" كلهم عائلة دين وفضل وعمل. وسمحت الفرصة زيارة زاوية الشيخ "ابن طكوك" (39) لقاء جماعة "الإباضية" بمستغانم كل الإكرام والمحبة<< (40). ودائما في إطار الإصلاح والعمل المستمر نزل الوفد ضيفا على أهل قرية "آرزيو" وعالمها الأديب الشيخ "أبو عبد الله" (41). وصادف قدومهم يوم الجمعة فصلوا خلفه وبعدها أقيمت دروس حول التعليم والإصلاح من طرف أعضاء الوفد حيث توافد الناس عليهم من تلك النواحي كلهم كرم الشيخ "عبد الله" الذي قدم قصيدة بليغة في ذكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وعن دواعي الجولة يؤكد الشيخ الفضيل الورتيلاني>>..إن سبب الرحلة ومقصود الجمعية منها هو نريد للمسلمين أن يبلغوا في المعارف والفلاحة والتجارة والصناعة إلى مستوى أعلى فتكون حالتهم مناسبة للرقى والمدنية<< (42).

وفي مدينة "وهران" وجد الوفد الإصلاحي أعيانها ومعهم المفتي الشيخ "الحبيب بمخالفة" وفضيلة الشيخ "الطيب المهاجي" وغيرهما في انتظارهم، وفي هذا الصدد يؤكد الشيخ "الفضيل الورتيلاني":>>..لقد رأيت من أهل هذه العاصمة الغريبة تعطشا للعلم وإقبالا على سماعه، ولقيت فيها نخبة الفضلاء ذوي المعارف المتعلمين بالفرنساوية على جانب من الدين والقومية<< (43). أما في مدينة "تيارت" فقد إستقبل أهلها والشيخ "غلام الله آل سيدي عدة" وعشيرته الوفد الإصلاحي إستقبالا لائقا، وبالجماع ألقى أعضاء الوفد درسا في الإصلاح والإرشاد والتوجيه بعد صلاة الجمعة، وعن حياة أهل البلدة قال الشيخ الفضيل الورتيلاني>>..أن لياليهم لا تخلو عندهم من دروس وعظات<< (44).

وقد قام الوفد بزيارة إلى زاويتهم حيث الطلبة المتعلمون وإلى مدفن بعض أسلافهم أين اطلعوا على بعض تأليف جدهم الشيخ "سيدي عدة" فرأوا منها كتابا قد ملئ بأحاديث "البخاري" و"مسلم" ومسائل فقهية كان يدرسها للناس فأصبح محل إعجاب لدى جماعة الوفد الإصلاحي حيث قال "الورتيلاني":>>..هكذا نجح لمن يريد أن يكون

شيخا أن يكون، وهكذا نحب أن يكون إرشاد مشايخ الطرق بالحديث وتعليم مسائل الفقه >(45) وأهدى الشيخ "غلام الله" لجمعية العلماء مبلغا قدره "خمسمائة فرنك" ووعد بأنه من أنصارها ومؤيديها.

وبعد هذه الرحلة في الغرب الجزائري إنتقل وفد الإصلاح والإرشاد إلى مدينة "بسكرة" لتأسيس شعبة جمعية العلماء وعند نزولهم قصدوا "مدرسة الإخاء" وكان في إستقبالهم كل من الشيخ: "الأمين العمودي" (46) والشيخ "محمد خير الدين" والشيخ "محمد الطرابلسي" والشيخ "بلقاسم البسكري" المدرسين بالمدرسة. وما لاحظته الشيخ "الفضيل الورتيلاني" هو اهتمام البسكريين -مالكية وإباضية- فكانت تسمية مدرستهم "بمدرسة الإخاء" وهو أثر مما تنطوي عليه قلوبهم من معنى الأخوة بالإضافة إلى روح التضامن والتآخي البادية بكل وضوح في إدارة المدرسة من الجانبين وكذلك في التعليم وفي الأبناء المتعلمين من المالكية الإباضية المتزجين يبعضهم ليسوا على ذلك التآخي والإتحاد.

ومن بين المدن في الوسط التي زارها الشيخ "الورتيلاني" ضمن وفد الجمعية نذكر: البليدة التي قال عنها: >>.. بلدة الورد والماء البارد العذب، أكرم أهلها الوفد، وأحسنوا الضيافة، وأظهروا الإقبال على العلم والرغبة في سماعه للتعلم منه، وانتهر "الإمام" الفرصة فتحدث عن رجال الإصلاح والمصلحين >> (47). واستمعوا إلى درس ألقاه أعضاء الوفد بالجامع الأعظم باقتراح من بعض المريدن في حين يسجل نشاط الوفد في الرحلات الإصلاحية والتربوية في المدن بأفكاره ولغته وتعبيره وانطباعاته الخاصة عن الأماكن والأشخاص واتجاههم، ويتحدث عن وضع المنطقة التي يزورها من الناحية الإجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية وجانبها التاريخي والجغرافي ويذكر بالتفصيل نشاط وفد الجمعية الإصلاحي من إلقاء وتقديم الدروس والمحاضرات وتنظيم وبرمجة وإجراء مناقشات وحوار مع العامة حول مواضيع العلم والإصلاح والسعي لجمع الأموال التي تخصص لبناء المساجد والمدارس. وعن نشاط أعضاء الوفد تحدث الشيخ "الفضيل الورتيلاني" عن دور "الإمام" وحصر برمجته أعماله يومي "الخميس والجمعة" -العطلة الأسبوعية- ليستغلها مضحيا بها، من أجل تنفيذ مهمات دينية وثقافية في أوساط العامة عبر مدن البلاد. حيث يؤكد أن "إبن باديس" آزر الرجال العاملين المخلصين وشجع المواطنين على العمل والتعليم الديني والمسجد التعليمي وغيرها من المسائل الإصلاحية والتوجيهية التي تهدف الحركة الإصلاحية إلى تحقيقها. وأحسن "الفضيل" تصوير ذلك الإخلاص لدى الجمهور ورجال التعليم وفي مقدمتهم "إبن باديس" كما أجاد في وصف الإقبال الحسن للعامة على شؤون دينهم واهتمامهم بالتعليم والعلم ورواده. (48)

وكذا الرحلة الإصلاحية التي قادته إلى كل من "عنايه" و"قالمه" وعاد ثانية إلى كل من "سطيف" و"عين مليلة" للوقوف على مسار الحركة الإصلاحية والنتائج المحققة بها والحديث عن جانبها الجغرافي لأن الرجوع إلى المصادر الأساسية في الجغرافية أولى في رأي كان أسلوب الرحلة خبريا وصفيا مع قليل من التحليل للتوعية والتوجيه الديني والاجتماعي، فيذكر الحديث بالسرود والتعليق على اللقاءات والمناقشات مع الجمهور والأعيان وكذا بعض المسؤولين في إدارة الاحتلال. والقارئ لرحلات "الورتيلاني" يلمس تركيزها على الحديث عن الجانب الديني والاجتماعي والوطني، شخص فيها مواطن الضعف في المواطن مشتغلا بذرة العقيدة الوطنية ليمدها بأسباب النماء والانتشار فينفخ فيها روح التضحية ويشحنها بالأمل الفاعل حتى يتطلع المواطن إلى ما ينير له الدرب ليبرز حسه الوطني.⁽⁴⁹⁾

ووصف ذلك وصفا أدبيا في صدق وكثير من الاستعداد فعكس ذلك موقفا وطنيا وإحساسا مغمورا بالشعور الديني بين واقع الأمة الجزائرية وعملا من أجل النهوض في ظل إلتواء هذا الوطن لمجاله الحضاري عربيا وإسلاميا إذ نجد رحلاته قد عكست بدورها الجهود التي كانت تبذلها "جمعية العلماء المسلمين" في النهوض بحركة ثقافية، تعليمية عموما وحركة دينية خاصة كما عكست حسن التجاوب من طرف الشباب والمواطنين وما بدا يشيع في المحيط الاجتماعي من حس وطني مشبع بخلفية دينية.⁽⁵⁰⁾

إذا كانت الأحزاب السياسية أو المنظمات الرسمية قد خاطبت فئة معينة أو انحصرت في أبرز المدن، فإن خطاب جمعية العلماء قد وصل إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدينة بحيث أثرت في المجتمع الجزائري دون أن تستعمل الخطاب السياسي الذي لا يفهمه كل الناس والخطاب المادي الذي لا يهم كل الفئات بل إستعملت الخطاب العقلي والروحي -الدين، اللغة العربية، التاريخ، التعلم الأخلاق- الذي لا يستغني عنه أحد في المجتمع.⁽⁵¹⁾

وهكذا أصبحت "جمعية العلماء" بروادها الإصلاحيين، منظمة جماهيرية لها أتباع وأنصار في كل جزء من الوطن ولها شعب -جمع شعبية- ومدارس ومساجد حرة ونواد ومعلمون في كل قرية ومدينة. فقد وحدث أبناء الوطن فكريا وروحيا بعد أن حاول الاستعمار الفرنسي أن يمزقها، فهدمت الحدود الجهوية وما توزيعها للمعلمين عبر مدن البلاد إلا لخدمة هذا الهدف إذ عينتهم خارج مناطقهم الأصلية وتوجيه من كان منهم من شرق البلاد إلى غربها والعكس بل أبعد من ذلك -دوليا- في شخص بعض رواد الإصلاح وفي مقدمتهم: الشيخ الفضيل الورتيلاني الذي برزت معالمه ونتائج عند إندلاع ثورة التحرير الكبرى 1954م مستلهما منهجية خطة عمله، من نهج أساتذته "الإمام" الذي رسمه

وأعده رفقة رجال الإصلاح الذين حمل معهم لواء الدعوة الإصلاحية بعزيمة قوية جسدها في خطبه وبفصاحة لغته وكثيرة كتاباته، فحمله للدعوة الإصلاحية بجانب رواد النهضة والإصلاح يعبر بحق وصدق عن الدور البارز والحساس الذي قام به في الجزائر كمرب ومعلم ومرشد وواعظ ورحالة إذ أصبحت له مكانة مرموقة بين مجموعة من ذوي الخبرة والتجربة في هذا المضمار فكان الوحيد الذي وقع عليه الاختيار للقيام بمهمة الإصلاح والإرشاد والتربية وسط الجالية الجزائرية في فرنسا وهو ما أبرزناه.

مساهمته في الحركة الوطنية والثورة التحريرية الجزائرية 01-11-1954م.

عين الشيخ "الفضيل الورتيلاني" ضمن أعضاء المكتب القيادي لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة بعد تفجير ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، ونشرت له الصحف المصرية يوم 03 نوفمبر 1954 مقالا تحت عنوان: "إلى الثائرين من أبناء الجزائر" "يوم حياة أو موت" و"نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد" بتاريخ 15 نوفمبر 1954 بعنوان "نعيدكم بالله أن تراجعوا"، عن مكتب جمعية العلماء المسلمين بالقاهرة ونشر النداءات في كتاب الجزائر الثائرة.⁽⁵²⁾

وفي هذين النداءين إعلان صريح بتأييد الثورة المسلحة، ودعوة إلى اتحاد وإنضمام كافة أبناء الشعب الجزائري إلى جبهة التحرير الوطني، ومقاتلة العدو في وحدة وطنية. وفعلا منذ اللحظة الأولى التي أعلن فيها الشعب الجزائري كفاحه المسلح ضد المستعمر الفرنسي، لم يتوقف "الورتيلاني" عن توجيه نداءات إلى أحرار العالم، مبينا لهم صدق الثورة الجزائرية، ومطلعا إياها على كل ما يجري في أرض الوطن من جهاد وما يقوم به المستعمر من أعمال تخريبية. كما كان على صلة بكبار قادة جبهة التحرير الوطني، مجددين العهد على درب مسيرة النضال حتى النصر، مجندا قلمه، ولسانه لإذاعة كل ما يجري من أحداث، لشرح حقائق الكفاح، الذي يخوضه الشعب الجزائري، فكانت مساعيهِ موفقة.

لقد كانت مساهمته في ثورة أول نوفمبر 1954، المباركة ممثلة في سلسلة من المقالات والخطب السياسية، والإجتماعية التي كان يكتبها للرأي العام المحلي والدولي، وفي هذا الصدد وجه نداء إلى أبطال الثورة قال فيه: >>.. لقد أثبتتم بثورتكم عدة حقائق: الأولى: أنكم سفهتم دعوى فرنسا المفترية، التي تزعم أن الجزائر راضية مطمئنة فأفهمتموها أن الرضى بالاستعمار كفر، وأن الاطمئنان لحكمه ذل، وأن الثورة على ظلمه فرض.

الثانية: أنكم شددتم عضد إخوانكم المجاهدين في تونس ومراكش، وقويت آمالهم في النصر وثبتت عزائمهم في الجهاد، وقد كان من حقهم، أن ينتظروا هذه النجدة منكم، فجتتم بها في وقتها، كفرتم عن التقصير في هذه المباغطة لعدوكم.

الثالثة: أنكم أوصلتم بثورتكم هذه، حلقات الجهاد ضد المعتدين الظالمين>> (53).
إن الجهاد ضد الإستعمار، أصبح اليوم واجبا، ومقدسا، فرضته الوطنية، وفرضه ظلم المستعمر الذي شمل بلدان المغرب العربي، وفرضته مصلحة البقاء، الحياة أو الموت إما بقاء كريم أو فناء شريف.

ومما جاء في النداء الذي وجهه إلى الشعب الجزائري المجاهد: >>..أيها الإخوة الجزائريون الأبطال، لم تبق لكم فرنسا شيئا تخافون عليه، ولا خيطا من الأمل تتعللون به، لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه أم تخافون على الأرض وخيراتها؟ وقد أصبحت فيها جياعا.. إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، فإختاروا ميتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت>> (54).

وتحدث الشيخ "الفضيل الورتيلاني" عن "الليلة الليلة" أين فوجئت البلاد، بعدد عظيم من الحوادث وقعت كلها ما بين الساعة الواحدة والساعة الخامسة من صبيحة الاثنين غرة نوفمبر 1954م، والتي تزيد عن "ثلاثين" حادثة، وتركزت الحوادث في جهات "جبال الأوراس" و"باتنة" و"خنشلة" ثم جهات "الجزائر" وبلاد "القبائل" و"بوفاريك" و"بابا علي" و"عزازقة". (55)

حاربت الجزائر في سبيل بقائها، فكافأها فرنسا، بقتل أبنائها، مثل ما وقع معها في يوم 08 ماي 1945م. (56) وما كانت قيمة أبناء الجزائر الذين ماتوا في سبيلها وجلبوا لها النصر، إلا أنها نقشت أسماء بعضهم في النصب التذكارية، فهل هذا هو الجزاء؟ وهي سائرة في معاملتها للشعب الجزائري من فضيع إلى أفضع.

إن شريعة فرنسا، ألما لا تأخذ البريء بذنب المجرم، وألما تنظر إلى الثوار الجزائريين مسلمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي ألما عدو لهم وأنهم أعداء لها. (57)

فهم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختار الثوار ميتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت، فقد كتبوا "البسملة" بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة. فالآيات هي شعار الثوار في التاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام ما كان للمسلم أن يخاف الموت، وهو يعلم ألما كتاب مؤجل، وما كان للمسلم أن ييخل بماله أو بمهجته في سبيل الله، والانتصار لدينه، وهو يعلم ألما قربة إلى الله، فالمطلوب هو إخلاص العمل لله، وإخلاص البصائر في الله، والذكر الدائم وفي جميع الأعمال ما دعا إليها "القرآن الكريم" من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدين. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. (58) كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. (59)

ولثورة الجزائر التحريرية أمران إثنان:

الأول: أن الثائرين في الجزائر، هم جميع الجزائريين الذين لم يفرق ظلم الفرنسيين بينهم.

الثاني: إن هذه الثورة النبيلة المقدسة، قد قامت لغرض جدي وشريف المتمثل في استرجاع سيادة الوطن، وأن الثورة لن تنتهي حتى تحقق أهدافها.⁽⁶⁰⁾

وعلى القارئ أن يحكم بمنطقه الخاص على ما إذا كان المقاتلون في الجزائر ثوارا أم خارجين عن القانون، الجزائر لا تريد إلا الإستقلال، والمغرب العربي لا يريد إلا الوحدة، وكل محاولة خارج هذه الحقيقة، هي تضيع للوقت، ومضاعفة لتعقيد الأمور.

والجزائريون وحدهم الذين يقومون بالقتال، ويديرون دفته، لا يمكن حل القضية الجزائرية بصفة سليمة وسريعة إلا بالاعتراف العلني الصريح بكيان الأمة الجزائرية، وجنسياتها وثورتها الشرعية والمؤكد أنه لا يمكن وضع حد لحالة الحرب، إلا بواسطة التفاهم الصريح مع سائر الممثلين للشعب الجزائري، من رجال الحل والعقد، الذين أظهرهم الكفاح الجزائري.

وعن سؤال وجه للشيخ "الفضيل الورتيلاني" حول مطالب الجزائريين الأساسية، ومن الذي يراه صالحا ليتولى المفاوضات مع فرنسا؟ فأجاب: إن مطالب الجزائريين الأساسية مختصرة جدا، ويمكن أن تعبر بكلمة واحدة هي الإستقلال.

وجبهة التحرير الوطني، هي العين التي ينظر بها جيش التحرير، وهي الأذن التي تسمح بها، وأعضاء الجبهة يجب أن يفعلوا المستحيل، لكي يسهلوا مهمة جيش التحرير في جميع الميادين، واستقاء المعلومات والأخبار، ويكون هذا العمل متماشيا مع العمل اليومي. وهي عبارة عن تجمع الطاقات السليمة في الشعب الجزائري، وهي تؤكد أن تحرير الجزائر هو عمل يشارك فيه جميع الجزائريين لا جزء واحد منه، مهما كانت قيمته، لذلك تنظر الجبهة بعين الاعتبار لكفاح جميع العناصر المناهضة للاستعمار.

الخاتمة.

يعتبر الشيخ الفضيل الورتيلاني من بين الشخصيات التي لعبت دورا متميزا في الجهاد الإصلاحي والتعليمي، وهو رائد من روادهما وعلم من أعلام العرب والمسلمين. فلم تكن حياته حياة راحة بل كانت حياة جهاد باللسان والقلم، ودعوة إصلاح والعودة

إلى الأصل، حيث استطاع إكساب الكثير من المؤيدين له والمتعاطفين والمتحمسين لفكرة الإصلاح في الجزائر.

بقي يناضل من أجل الإصلاح ووطنه الجزائر، واستمر على هذا النشاط إلى قيام الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى حيث أصدر جمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بيانين يعبران فيهما عن مساندة وتأييد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للثورة المباركة. وقد عملا على نشر أخبارها وانتصاراتها والتعريف بها محليا ودوليا لكسب التأييد والمساندة لها، فأصبحت ذائعة الصيت بالشرق العربي والعالم، الأمر الذي جعل قيادة الثورة تختاره، فأرسلته إلى تركيا قصد كسب تأييد حكومتها للثورة الجزائرية.

وبقي الشيخ الفضيل الورتيلاني بتركيا يحمل هموم الجزائر وقضيتها والدفاع عنها إلى أن وافته المنية عام 1959م دون أن يشهد الانتصار العظيم الذي حققه شعبها يوم 5 جويلية 1962م.

إن استعادة الجزائر لاستقلالها وإرجاع رفاة المجاهد الشيخ الفضيل الورتيلاني الرجل الرمز إلى مسقط رأسه ووطنه، وما قدمه لها أثناء الإحتلال الأجنبي، خير دليل على تكريم الجزائر لأبنائها البررة، ومجاهديها، ومصلحيها، الذين سجلوا أسماءهم بحروف بارزة على صفحات تاريخها المجيد.

إن تردد اسم الشيخ الفضيل الورتيلاني على لسان كل عالم ومصلح في المغرب والشرق العربيين، لخير شاهد ودليل على أعماله النضالية والإصلاحية، التي جعلت من رفيق دربه الشيخ محمد مبارك الميلي يقول: "إذا عرفتم الفضيل الورتيلاني عرفتم صفحة من صفحات الجهاد في هذا العصر". جهاد في ميدان التربية والتعليم بالجامع الأخضر بقسنطينة منذ بداية عام 1932م إلى جانب الدعوة والإرشاد والوعظ والإصلاح عبر العديد من مدن الوطن الجزائري في إطار مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وهكذا فمساهمته في الحركة الوطنية وثورة التحرير، جعلته يؤيد ويناصر الثورة المباركة، ويحث بأن الجهاد ضد الإستعمار واجب مقدس، وعلى العالم أن يقتنع بذلك لأن إرادة الشعوب لا تقهر.

الهوامش:

- (1) الحسين الورتيلاني: الرحلة، "نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار" تحقيق والنشر محمد بن أبي شنب- الجزائر - 1908م ط بيروتناتنة.
- (2) محمد البشير الإبراهيمي: البصائر، س2، قسنطينة (6 مارس 1950م)، العدد 110.
- (3) عبد الحميد بن باديس: رحلات الفضيل الورتيلاني الإصلاحية، آثار الإمام ابن باديس، الجزائر 1977م مطبوعات وزارة الشؤون الدينية.
- (4) الفضيل الورتيلاني: تصحيح العقيدة من الشوائب، الثقافة.
- (5) عبد الحميد بن باديس: الفضيل الورتيلاني، الثقافة.
- (6) الزيتونة: مجلة علمية أدبية أخلاقية تصدرها هيئة مدرسي الزيتونة بتونس، 1939م وهي شهرية .
- (7) أستاذه وملازمه في جولاته ورحلاته الإصلاحية بمدن الجزائر، وممثله وللجمعية بفرنسا والمشرق العربي.
- (8) الفضيل الورتيلاني: أهداف ومبادئ جمعية العلماء، الجزائر النائرة، الجزائر 1992م، ع. مليلة، دار الهدى
- (9) عبد الحميد بن باديس: مواهب ونشاط الفضيل الورتيلاني، آثار الإمام، م.س.
- (10) مجهول: جولات الفضيل الورتيلاني عبر الوطن، الثقافة، م.س.
- (11) الفضيل الورتيلاني: الدعوة إلى التعليم، البصائر، س1، قسنطينة 24 افريل 1936م. العدد 16.
- (12) الشهاب: أسسها عبد الحميد بن باديس تصدر، بقسنطينة. الجزائر .
- (13) علي مرحوم: الفضيل الورتيلاني والتدريس، الثقافة، م.س.
- (14) من الذين حضروا إفتتاح النادي الشيخ عبد الحميد ابن باديس، والسيد فرحات عباس ، والسيد صالح السعيد. والسيد ماصو رئيس بلدية سطيف.
- (15) فرحات بن الدراجي: نادي الإرشاد، البصائر، م.س.
- (16) من اغضاء إدارة النادي: عباس فرحات رئيسا، والهادي مصطفى كاتب أول، ومصطفى قاسي كاتب ثاني وعبد الرحمن بن خوجة أمين مال، والفضيل الورتيلاني نائبه، والحسن علوش مراقب وكاتب عام، والسيد ابن سمره نائب الكاتب.
- (17) الفضيل الورتيلاني: البلدة الطيبة، البصائر، س1، قسنطينة 01. 05. 1936م، العدد 17، ص3.
- (18) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص 4.
- (19) عبد الله بن محجوب: ينتسب إلى عائلة من قاله عرف بالعلم والدعوة إلى الإصلاح كان محاضرا في النادي وإشتغل مدرسا في محل خاص وامتدت أعماله الإصلاحية إلى القرى وصفه الشيخ الفضيل الورتيلاني بأنه شيخ في تدينه وشاب في نشاطه واجتهاده.
- (20) الفضيل الورتيلاني: الإحترام، البصائر. م.س، ص 5.
- (21) المسجد: تم شراؤه في شهر فيفري 1936، (وصول وفد الجمعية يوم 17-02-1936م).
- (22) باع عبد الحميد بن باديس المسجد للجمعية الدينية "بعين مليلة" باعتبارها شخصا معنويا يخول لها القانون إن تصرف فيه وكثيرا ماكان الأستاذ يقول: والله إن كتابة هذا المسجد باسمي لأثقل علي من جبل ولا أستريح إلا إذا تم تسلمه للمسلمين بصفة رسمية وأكون أمام الله خارجا من المسؤولية .
- (23) الفضيل الورتيلاني: الإلتزام الإصلاحية، البصائر، س1، قسنطينة 28-02-1936م، العدد9، ص3. 4.
- (24) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص5.
- (25) ينظر أكثر: السعيد بن الزكري، إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، م.س. ص168.
- (26) الفضيل الورتيلاني: الرحلة الإصلاحية، البصائر، م.س، ص5. 6.
- (27) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص6.
- (28) الطاهر الحركاتي: متخرج الزيتونة وهو رئيس شعبة جمعية العلماء بباتنة ينشر الإصلاح.
- (29) الفضيل الورتيلاني: تكوين الجمعية، الشهاب، م.س، ص6.
- (30) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص8.
- (31) الفضيل الورتيلاني: نادي الإصلاح، الشهاب، قسنطينة 41/06/1934م، ج7. م10. ص16.
- (32) بوقاعة: تدعى في العرف العام ببني على.

- (33) أعضاء الجمعية: عبد الحميد بن باديس، ومحمد خير الدين، وموسى الدراجي، وأحمد إمام المنطقة، وعبد اللطيف، ومحمد الطاهر السليمي. المرجع، الشهاب، م.س، ص11.
- (34) الفضيل الورتيلاني: دور العلم، الشهاب، نفسه، ص 16.
- (35) محمد الوكال: عالم ومصلح.
- (36) علبش: داعية للعلم والإصلاح في تلك النواحي وهو ابن علي إمام المسجد.
- (37) الفضيل الورتيلاني: الرحلة الإصلاحية، الشهاب، قسنطينة (نوفمبر 1931م)، ج 12، م7،
- (38) بالقاسم بن حلوش: سعى للحصول على رخصة رسمية من الإدارة الفرنسية تسمح له بتعليم التلاميذ الصغار.
- (39) زاوية بن طكوك: شيخها عبد القادر، وأخوه مصطفى محمد.
- (40) الفضيل الورتيلاني: الإصلاح، الشهاب، قسنطينة (نوفمبر 1931م)، ج 11، م7، ص8.
- (41) أبو عبد الله آل عبد الله: عالم فصيح اللسان واسع الإدراك، مستقيم الفكر، معترف له بالعلم والفضل. المرجع نفسه: ص9.
- الفضيل الورتيلاني: المدنية، الشهاب، م.س، ص 11.
- (43) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص 14.
- (44) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص 15.
- (45) الفضيل الورتيلاني: التعليم بالزوايا، أثار الإمام عبد الحميد بن باديس، م.س، ص254.
- (46) الأمين العمودي: أديب، وشاعر، وسياسي، درس بقسنطينة وهو من مؤسسي جمعية العلماء تولى كتابتها العامة، أسس صحيفة الدفاع بالفرنسية وتوفي سنة 1957م بالبويرة، (الجزائر).
- (47) الفضيل الورتيلاني: الرحلة الإصلاحية. الشهاب، قسنطينة أوت 1932م، ج 1، م8، ص10.
- (48) الفضيل الورتيلاني: المصدر نفسه، ص 11.
- (49) باعزیز بن عمر: ابن باديس المربي الكبير، البصائر، العدد 104. م.س.
- (50) عمر بن قينة: إبحارات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، الجزائر 1995م، دار المطبوعات الجامعية.
- (51) مجهول: خطاب جمعية العلماء، البصائر، س1، قسنطينة افريل 1936م، العدد 16، ص 7.
- (52) الفضيل الورتيلاني: ثورة نوفمبر 1954م. الجزائر النائرة، م.س، ص99.
- (53) الفضيل الورتيلاني: إلى الثائرين الإبطال من أبناء الجزائر، الجزائر النائرة (3. 11. 1954م)، م.س. ص102.
- (54) الفضيل الورتيلاني: أوسع المعلومات عن بداية الثورة، نفسه، ص103.
- (55) بن عمر باعزیز: الورتيلاني والثورة الجزائرية المباركة، نفسه ص104.
- (56) الفضيل الورتيلاني: غدر الإستعمار ومما طلته، نفسه، ص106.
- (57) الفضيل الورتيلاني: التراجع معناه الفناء، البصائر، س2. قسنطينة (16. 12. 1955)، العدد 345، ص3.
- (58) سورة الصف: الآية : 11.
- (59) سورة البقرة: الآية: 249.
- (60) الفضيل الورتيلاني: نداء إلى رئيس وزراء فرنسا، البصائر، م.س. ص5.